سبحانه من المعاهدة التى انتهت مع ذوات الكفار إلى ذوات الكفار بأنفسهم، فيقول تبارك وتعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (٢٨)

أى: أنه لا يكفى أن يقطع المؤمنون كل عهودهم مع المشركين، بل لا بد أن يبرأوا أيضاً من المشركين أنفسهم؛ لأنهم نجس، والنجس هو الشىء المستقذر الذى تعافه النفس وتنفر منه، وقد يكون المشرك من هؤلاء مقبولاً من ناحية الشكل والملبس، ولكن هذا هو القالب، والحق سبحانه وتعالى حينما يتكلم إنما يتكلم عن المعانى وعن الخلق. فالله عز وجل لا ينظر إلى القوالب، بل إلى القلوب، ويقول الرسول ﷺ فى الحديث الذى يرويه عنه أبو هريرة رضى الله عنه: «إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم»(١).

فقد تكون الصورة مقبولة شكلاً، لكن العقيدة التى توجد فى قلوب تلك الأجساد قذرة ونجسة، وسبحانه لا يأخذ بالظواهر ولا بالصور، بل بالقيم. وأنت إذا ما نظرت إلى القيم وإلى العقائد الحقة الصادقة، تجد كل عقيدة تنبئ عن تكوين مادتها، وعلى سبيل المثال، حينما تكون فرحاً، يتضح ذلك على

(١) يعنى: أن العبرة يوم الحساب بالنظر إلى قلوبكم لا إلى مظاهركم، وفيه حث على الاعتناء بالقلب وتطهيره. والحديث رواه الإمام مسلم (٢٥٦٤) وأحمد فى مسنده (٢/ ٢٨٥، ٥٣٩) وابن ماجه فى سننه (٤١٤٣)، واللفظ لمسلم.

أساريرك ، ومن سيقابلك سيلحظ ذلك ويعرف أنك مبتهج ، وإن كنت غاضباً أو تعانى من ضيق ، فهذا يتضح على أساريرك .

إذن : فالمادة تنفعل بانفعال القيم ، وما دامت القيم فاسدة فالمادة التى يتكون منها جسده تكون متمردة على صاحبها ؛ لأن المادة بطبيعتها عابدة مسبحة لله ، وكذلك الروح بطبيعتها عابدة مسبحة لله تعالى ، ولا ينشأ الفساد إلا بعد أن توضع الروح فى المادة ، ثم تتكون النفس من الاثنين معاً ، المادة والروح ، فإن غلَّبت النفس منهج الله صارت مطمئنة ، وإن تأرجحت النفس بين الطاعة والمعصية ، فإما أن تطيع فتكون نفساً لوامة ، وإما أن تكفر وتتخذ طريق الشر فتكون نفساً أمارة بالسوء . أما قبل أن تنفخ الروح فى المادة ، فكل منها مسبح لله تعالى ؛ لأن كل شىء فى الوجود عابد مسبح ، والنفس فى كل سلوكها مقهورة لإرادة صاحبها بتسخير من الله عز وجل ، وحين يأتى الموت ، تنتهى الإرادة البشرية وتسقط سيطرة الإنسان على جسده ، بل إن هذا الجسد يشهد على صاحبه يوم القيامة . والإنسان فى الحياة الدنيا يعيش وإرادته تسيطر على مادته بأمر من الله ، فاليد قد تضرب إنساناً ، وقد تعين إنساناً آخر وقع فى عسرة ، ولسان المسلم يشهد أن لا إله إلا الله ، ولسان الكافر يشرك مع الله آلهة أخرى .

إذن : فمادة الإنسان خاضعة لإرادة صاحبها فى دنيا الأغيار ، فإذا انتقل إلى الآخرة فلا تأثير له على المادة ، وتتحرر المادة من طاعة صاحبها فى المعصية ، وتتمرد عليه ، وتشهد على صاحبها بأنه كان يستخدمها فى المعصية . والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٠) وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢١) ﴾ [فصلت]

فكأن جوارح الإنسان تقول له يوم القيامة : لقد أتعبتنى فى الدنيا وأكرهتنى على فعل أشياء لم أكن لأفعلها لأننى عابدة مسبحة لله، وإن ما أمرتنى به يخرج عن طاعة الله عز وجل ، وسبق أن ضربت المثل بقائد الكتيبة الذى يصدر أوامر خاطئة فيطيعه الجنود، فإذا ما عادوا إلى القائد الأعلى شكوا له مما كان قائد الكتيبة يكرههم عليه، كذلك أبعاض الجسم تشهد عليه عند خالقها يوم القيامة. فإن كنت عابداً مُسبِّحاً كانت جوارحك معك. وإن كنت غير ذلك كانت جوارحك ضدك، فاللسان مثلاً عابد مسبح فى ذاته، فإذا أكرهته على أن يشرك بالله فهو مُكْرَهٌ فى الدنيا، ويصير شاهداً عليك يوم القيامة. والحق سبحانه وتعالى ينادى يومئذ قائلاً :

﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦)﴾ [غافر]

وهنا يقول الحق عز وجل: ﴿إنما المشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ أى : أن عقيدتهم الفاسدة تنضح على تصرفاتهم، وسبحانه وتعالى يربب المعانى الإيمانية فى النفوس أى يزيدها، ومثال ذلك: نحن نرجم إبليس كمنسك من مناسك الحج، نرجم قطعة من الحجر رمزنا إليها بالشيطان، ونحن لا نرى الشيطان، وقد وضعنا له رمزاً وأرسينا فى أعماقنا أن الشيطان عدو لنا ويجب أن نرجمه لنبتعد عن مراداته، وبذلك أبرزنا هذه المعانى فى أمر حسى؛ لنوضح للنفس البشرية أن الشيطان عدو لنا، وكلما وسوس الشيطان لنا بأمر نرجمه بأن نبين لأنفسنا قضايا الإيمان الناصعة فيهرب منا. وكل منا عليه أن يتذكر أن الشيطان سوف يضحك على العاصين والكافرين فى يوم القيامة، ويقول ما أورده الحق سبحانه وتعالى على لسانه:

﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾[إبراهيم: ٢٢]

وفى هذا القول سخرية ممن صدقوه ؛ لأن السلطان إما سلطان القهر بأن تأتى لإنسان بما هو أكبر منه وتقهره على فعل شىء بالقوة، وإما سلطان الإقناع

بأن تقنع إنساناً بأن يفعل شيئاً. والشيطان ليس له سلطان القهر والحجة.

والحق سبحانه وتعالى عندما يقول: ﴿ إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلاَ يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا ﴾ فإنه يوضح لنا أن نجسهم يحتم علينا أن نمنعهم من دخول الأماكن التى لا يدخلها إلا الإنسان الطاهر. وجعل الحق سبحانه وتعالى النجاسة المعنوية مثلها مثل النجاسة المادية، ولذلك قال العلماء: ما دام الحق قد وصفهم بأنهم نجس فلابد أن يكون فيهم نجس مادى، ولذلك إذا اقتربت منهم تجد لهم رائحة غير طيبة ، لأنهم لا يتطهرون من حدث، ولا يغتسلون من جنابة. وعندما ذهبنا إلى الجزائر بعد تحريرها من فرنسا، لم نجد فى البيوت حمامات ؛ لأن الواحد من المستعمرين لا يذهب إلى الحمام إلا كل عشرين يوماً مثلاً ، لذلك جعلوا الحمامات بعيداً عن المساكن، ولكن بعد أن تحررت الجزائر صار فى البيوت حمامات ؛ لأن الثقافة الإسلامية مبنية على الطهارة ، ويتوجب على المسلم أنه كلما دخل الإنسان الحمام تطهر، وكلما كان جنباً اغتسل.

ولقد قال البعض: لو أننى سلَّمت على مشرك ويده رطبة. . فلابد أن أغسل يدى[1] . فإذا كانت يده جافة فيكفى أن أمسح على يدى. وفى هذا احتياط وتأكيد على اجتناب هؤلاء المشركين. وإذا كنا نجتنبهم أجساداً وقوالب، ألا يجدر بنا أن نجتنبهم قلوباً ؟

وقد أنزل الحق سبحانه وتعالى هذه الآية الكريمة فى العام التاسع من الهجرة وهو العام الذى صدر فيه منع المشركين من الاقتراب من المسجد الحرام والبراءة من هؤلاء المشركين، وتساءل العلماء: هل الممنوع والمحرم هو اقتراب المشرك

(١) قال الحسن البصرى : من صافح مشركاً فليتوضأ ، ذكره القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣٠٣٠) ، قال ابن كثير (٢/ ٣٤٦) : «دلت هذه الآية الكريمة على نجاسة المشرك كما ورد فى الصحيح «المؤمن لا ينجس». وأما نجاسة بدنه فالجمهور على أنه ليس بنجس البدن والذات ؛ لأن الله تعالى أحل طعام أهل الكتاب ، وذهب بعض الظاهرية إلى نجاسة أبدانهم ، وقال أشعث عن الحسن : من صافحهم فليتوضأ . . رواه ابن جرير» .

من المسجد الحرام، أم من الحرم كله؟ وحدد الإمام الشافعى التحريم على المشركين بالوجود فى المسجد الحرام. ومع احترامنا لاجتهاد الإمام الشافعى نقول: إن الحق سبحانه وتعالى قال: ﴿فَلَا يَقْرَبُوا﴾ ولم يقل: فلا يدخلوا. وتحريم الاقتراب يعنى ألا يكونوا قريبين منه، وأقرب شيء للمسجد الحرام هو كل الحرم، ولو كان المراد هو المسجد فقط لمنع الحق دخولهم إليه بالنص على ذلك(١).

وهكذا نرى كيف يمكن أن يجتهد الإنسان ويبحث فى المعانى ليستخرج المضمون الحق. ويتابع المولى سبحانه وتعالى قوله: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾. وفى هذا القول الكريم حديث عن الغيب. والغيب - كما عرفنا - هو مايغيب عنك وعن غيرك، أما الشيء الذى يغيب عنك ولا يغيب عن غيرك فلا يكون غيباً، فإذا سرق منك مال مثلاً فأنت لا تعرف من الذى سرق، والسارق فى هذه الحالة غيب عنك، ولكنه ليس غيباً عن غيرك؛ فالسارق يعرف نفسه؛ والذى دبر له الجريمة يعرفه، ومن رآه وستر عليه يعرفه. وأنت - أيضاً - لا تعرف مكان المسروقات، ولكن السارق يعرف المكان الذى خبأها فيه.

إذن: فهى غيب عنك وليست غيباً عن غيرك. وهذه لعبة الأفاقين والنصابين الذين يُسخِّرون الجن، فما دام الشيء معروفاً ومعلوماً لغيرك من الناس؛ فالكشف عنه مسألة سهلة، ولكنّ هناك غيباً عنك وعن غيرك، وهذا هو ما ينفرد به الحق سبحانه وتعالى فى قوله سبحانه:

﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ... (٢٧)﴾ [الجن]

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣٠٣١): «قال الشافعى رحمه الله: الآية عامة فى سائر المشركين، خاصة فى المسجد الحرام، ولا يمنعون من دخول غيره، فأباح دخول اليهودى والنصرانى فى سائر المساجد. قال ابن العربى: وهذا جمود منه على الظاهر؛ لأن قوله عز وجل ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ تنبيه على العلة بالشرك والنجاسة».

ولكنْ هناك غيبٌ عن الناس جميعاً ، ولكنه لن يظل غيباً إلى آخر الزمان ، فمثلاً الكهرباء كانت غيباً واكتشفناها ، وتفتيت الذرة كان غيباً وعرفناه ، وقوانين الجاذبية كانت غيباً ثم دخلت فى علم الإنسان فأصبحت معلومة له وليس هذا هو الغيب الذى يقصده الله سبحانه وتعالى فى قوله: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ﴾، فهذا غيب يختص نفسه به، فلا تقل: إن فلاناً يعلم الغيب، ولكن قل: إنه مُعلَّم غيب، والمسائل الغيبية: إما أن يحجبها الزمان أو يحجبها المكان، فالآثار المطمورة مثلاً، تعبِّر عن شيء ماض واندثر، وفيه أخبار الأمم السابقة، ولا يعرفها أحد ، وستره حجاب الزمن الماضى، إلى أن يتم الكشف عنها ويهيِّئ الله لها من يفكُّ ألغازها.

أما إبلاغ الله رسوله من أنباء الأمم السابقة مما جاء فى القرآن الكريم فهو اختراق لحجاب الزمن الماضى ، نحو قوله تعالى :

﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ [آل عمران : ٤٤]

ويقول سبحانه وتعالى:

﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ (٤٤) وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ .. (٤٥) ﴾ [القصص]

وقوله سبحانه: ﴿وَمَا كُنْتَ﴾ فى آيات أخرى دليل على أن الله سبحانه وتعالى أخبر رسوله ﷺ بما كان مستوراً فى الزمن الماضى. أما الشيء الذى سوف يحدث فى المستقبل، فهو محجوب عنك بحجاب الزمن المستقبل، وقد اخترق القرآن الكريم حجاب المستقبل فى آيات كثيرة كلها تبدأ بحرف السين، وحرف السين دليل على أن الشيء لم يحدث بعدُ ، وقوله تعالى:

﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ ﴾ [فصلت: ٥٣]

دليل على أنه من الزمن المستقبل يكشف الله لنا عن آياته الموجودة فى الأرض، وقوله تعالى:

﴿ الٓمٓ (١) غُلِبَتِ الرُّومُ (٢) فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٣) ﴾ [الروم]

وهذا اختراق لحجاب المستقبل ؛ لأن النصر حدث بعد نزول هذه الآية بتسع سنوات. إذن : فالذى يحدث فى المستقبل محجوب عنك بالزمن المستقبل، ولكن هناك شيئاً يحدث فى الحاضر ولا نعرفه وهو محجوب عنك بحجاب المكان، فما يحدث فى مكان لست موجوداً فيه لا تعرفه، فأنت إن كنت جالساً فى مكة مثلاً ، فأنت لا تعرف ما يحدث فى المدينة المنورة لأنه محجوب عنك بحجاب المكان ، وهناك أيضاً حجاب النفس، أى : أن مايدور فى نفسك لا يعرفه أحد غيرك ؛ لأنه محجوب بحجاب النفس.

وحين يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلاَ يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا ﴾ فسبحانه وتعالى يخاطب قوماً يريد منهم أن ينفذوا هذا الأمر ، ولكنه سبحانه يعلم السرائر التى تستقبل النص. مثلما يأتى إنسان ويخبرك أن المخبز القريب من منزلك سوف يغلق فأول ما يتبادر إلى ذهنك السؤال: ومن أين سنأتى بالخبز؟ أو أن يقال لك : «إن الباخرة التى تحمل اللحم والخضروات ضلت الطريق» فأول ما يخطر على بالك لحظتها: ومن أين نأكل؟

وكان المشركون يأتون إلى الحج ومعهم أموالهم ويتاجرون وينفقون، هذه الفترة تمثل بالنسبة لمن يعيشون حول بيت الله الحرام فترة الرواج المادى الذى يعيشون عليه طوال العام.

فإذا كان الحق سبحانه وتعالى يقول لهم: ﴿ إنما المشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلاَ يَقْرَبُوا المسجدَ الحرامَ بَعْدَ عامهمْ هَذَا﴾ فأى شيء يختلج فى نفوس المسلمين؟ لابد أن يدور فى أعماقهم السؤال: ومن الذى سيشترى بضائعنا؟ لكن هل ترك الله عز وجل مثل هذا القول دون أن يرد عليه؟ لا ، فقد رد على التساؤل بقوله تعالى: ﴿ وإن خفتُمْ عَيْلةً فسوْفَ يُغنيكُمُ اللهُ منْ فضله إنْ شَاءَ﴾ .

وهكذا كشف الله حجاب النفس، وردَّ على ما سيدور فى نفوس المؤمنين فى نفس الآية التى حرم فيها على المشركين أن يقتربوا من المسجد الحرام، ولم ينتظر الحق سبحانه وتعالى حتى يعلن المؤمنون ما فى أنفسهم، بل رد على ما يجول بخواطرهم قبل أن يعلنوه.

وحين يكشف الله عز وجل حجاب النفس بهذا الشكل، فالمؤمن الذكى يقول: هذا ما جاء فى بالى. ولأطمئن لأنه عرف ما بنفسى فسوف يرزقنى. ولو لم يأت ذلك فى بالهم لكَذَّبوا النص. ولو كذبوا النص لما بقوا على الإيمان، وما داموا قد بَقَوْا على الإيمان فقد جاء النص معبراً عما يجول بأنفسهم تماماً.

والله سبحانه وتعالى كشف حجاب النفس فى آيات كثيرة فى القرآن الكريم، منها قوله تعالى عن المنافقين والكفار:

﴿ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ ﴿٨﴾ ﴾ [المجادلة]

وقول النفس لا يسمعه أحد، ولو أن هؤلاء لم يقولوا هذا فى أنفسهم لقالوا: والله ما خطر ذلك فى نفوسنا. ولأنهم قالوه فى أنفسهم فقد بُهتُوا لكشف القرآن الكريم لما يدور داخل أنفسهم. ولقد رد الله سبحانه وتعالى فى الآية الكريمة على ما سيدور فى خواطر المؤمنين عندما يستمعون إليها ، فلم ينتظر الحق سبحانه وتعالى حتى يشكو المؤمنون لرسول الله ﷺ خوفهم الفقر وقلة الرزق، بل أجاب سبحانه وتعالى على ذلك قبل أن يخطر على بالهم.

فكأن الحق سبحانه وتعالى يُشرِّع حتى للخواطر قبل أن تخطر على البال، ولا يترك الأمور حتى تقع ثم يُشرِّع لها.

وهنا يقول المولى سبحانه وتعالى: ﴿وإنْ خفتُمْ عَيْلَةً﴾ والعيلة هى الفقر، ويتابع الحق جل وعلا : ﴿ فَسَوْفَ يُغنيكُمُ اللهُ من فَضْله إن شَاءَ﴾ ، ولم يقل الحق "سيغنيكم" بل قال: ﴿فَسوْفَ﴾ وهى تقتضى زمناً سيمر ولكنه زمن قريب ؛ لأن الخير الذى سيأتى له أسباب كثيرة كفيلة بتحقيقه كأن يعوضهم الله عما كان يأتى به الكفار بأن تمطر السماء مطراً فينبت النبات، وهذه تحتاج إلى زمن، وأن يأخذوا بالأسباب بأن يروج لهم تجارة على غير المشركين، أويكشف لهم من كنوز الأرض ما يغنيهم. ولذلك قال: ﴿فَسوْفَ﴾. والأسباب تحتاج إلى وقت، فنزلت الأمطار قرب جدة التى أسلمت ونبت الزرع فى وادى خليط ، وتبالى باليمن وجرش وصنعاء، وجاءت أحمال البعير بالخير لأهل مكة وحدثت الفتوحات الإسلامية ، فجاء الخير من الجزية والخراج. وهكذا نرى أن ﴿فَسوْفَ﴾ امتدت لمراحل كثيرة ، وما زالت موجودة ممتدة حتى الآن.

إذن : فقد أخذت الأمد الطويل. على أننا لا بد أن نلتفت إلى قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وإنْ خفتُمْ عَيْلَةً﴾ هى حيثية بأن المؤمن عليه ألا يتهاون فى أمر دينه رغبة فى تحقيق أمر من أمور الدنيا ، فكل من يرتكب معصية خوفاً من أن تضيع منه فائدة مادية أو دنيوية ، كأن يخشى قول الحق خوفاً من أن يضيع منه منصبه ، أو يغضب عليه صاحب العمل فيطرده من وظيفته ، نقول له: لا عذر لك ؛ لأن الله سبحانه وتعالى قال: ﴿ وَإنْ خِفتُمْ عَيْلَةً فَسوْفَ يُغنيكُمُ اللهُ من فضله ﴾ .

وحيث إن الرزق من عند الله سبحانه وتعالى، وهذا هو كلام الله عز وجل، فلا عذر لأحد أن يرتكب معصية بحجة المحافظة على رزقه، أو بحجة أنه يدفع الفقر عن نفسه وبيته وأولاده.

على أن قوله تعالى: ﴿إن شَاءَ﴾ قد تجعل الإنسان يظن أن الزمن سوف يباعد بينه وبين الرزق ؛ لأنه سبحانه قد يشاء أو لا يشاء ، فكيف يكون هذا الأمر وهو سبحانه أراد بالآية طمأنة المسلمين .

وإذا كان الله قد قال: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فسوف يُغْنيكم اللهُ من فضله﴾

فإننا نقول: إن الحق سبحانه وتعالى يريد الصلة الدائمة بعبده وألا يفسد على العبد الرجاء الدائم فى الله تعالى. وقوله عز وجل: ﴿إن شَاءَ﴾ هو إبقاء لهذا الرجاء ؛ لأن العبد سيظل فى رجاء إلى الله عز وجل فيظل الله تعالى فى باله؛ ولأنه سيطلب دائماً رضا الله فإن هذا يجعله يبتعد عن المعصية ويتمسك بالطاعة.

وفوق ذلك كله ، فإن الحق تبارك وتعالى له طلاقة القدرة فى كونه ، فقدر الله وقضاؤه ليسا حجة على الله سبحانه وتعالى تقيد مشيئته سبحانه ، فمشيئة الله مطلقة لا يقيدها حتى قدر الله. فهو إن شاء حدث القدر. وإن شاء لم يحدث. وهكذا تظل طلاقة قدرة الله فى كونه.

وبعض العارفين بالله قد يكشف لهم الله لمحة من لمحات الغيب، فيخبر الواحد منهم الناس، فيخلف الله سبحانه وتعالى ما كشفه؛ حتى يظل الله وحده عالم الغيب؛ فما دام ذلك الذى اصطفاه الله بغيب أطلع الناس عليه. فسبحانه يُغيِّر أحداث الغيب ولا يعطى لذلك الشخص خبراً عن أى غيب آخر.

إذن فكلمة: ﴿إن شَاءَ﴾ هى إثبات لطلاقة قدرة الله فى كونه، فإن شاء أعطاكم، وإن شاء لم يُعْطكم، فالإعطاء له حكمة، والمنع له حكمة ، فقد يفترى البعض بالنعمة فيحجبها الحق عنهم، وهذا ما حدث فى كثير من البلاد

التى طغت وكفرت بنعمة الله عليها ؛ لأنه سبحانه لو ترك النعمة هكذا بدون ضوابط لاستشرى فى تلك البلاد الفساد والمعاصى، إذن : فالمشيئة تقتضى إعطاءً، أو منعاً، والإعطاء له حكمة، والمنع له حكمة ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى يعامل خلقه على أنهم من الأغيار القُلَّب؛ منهم من تأتيه النعمة فتطغيه، ولذلك يقول سبحانه وتعالى :

﴿ فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ﴿١٦﴾ ﴾ [الفجر]

أى : أن الإنسان إذا أنعم الله تعالى عليه ، عدّ هذا كرماً من الله عز وجل ، وإذا ما ضيق الله عليه الرزق اعتبر ذلك إهانة وعدم رضا من الله .

ويرد الله تبارك وتعالى ليصحح المفهوم فيقول: ﴿كَلَّا﴾ أى لا المال دليل على الإكرام، ولا قلة المال دليل على الإهانة.

﴿ كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾ ﴾ [الفجر]

إذن : فالمال إذا جاء ليطغيك يكون نقمة عليك وليس نعمة لك، وإذا كانت قلة المال تمنع طغيانك فهى نعمة وليست نقمة. ولذلك قال تبارك وتعالى:

﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ﴿٦﴾ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ﴿٧﴾ ﴾ [العلق]

قد يمنع عنك المال الذى إن وصل إليك غرَّك فتحسب أنك فى غنى عن الله تعالى وتطغى ، وهذا المنع نعمة وليس نقمة، إذن فقوله تبارك وتعالى: ﴿فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاءَ﴾ هو إبقاء لطلاقة القدرة فى الكون حتى يكون الإغناء لا بالمادّة وحدها ولا بالمال وحده، ولكن بالقيم أيضاً، فلا يذهب المال قيم السماء ولا يبعد عن منهج الله.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿إِن شَاءَ﴾ يعنى: أنه سبحانه إن شاء أعطى ،

وإن شاء منع ، فلا مانع لما أعطى ، ولا معطى لما منع ، وهى طلاقة المشيئة ، فى حدود حكمة الله عز وجل، فلا تقل حين يمنع: إنه لم يحقق قوله: ﴿فَسوفَ يُغْنيكُمُ اللهُ من فَضْله﴾ لأن الإغناء كما يكون بالمادة، يكون أيضاً إغناء بالقيم. ويؤكد هذا قَوْلَه سبحانه وتعالى: ﴿ إنَّ اللهَ عليمٌ حكيمٌ ﴾ أى: عليم بالأمر الذى يصلح لكم ، حكيم فى وضع العطاء فى موضعه والمنع فى موضعه.

ثم يقول الحق بعد ذلك :

﴿ قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَـٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾

وهنا يعود الحق سبحانه وتعالى إلى التحدث عن القتال، ونعلم أن الذين تحدث عنهم المولى سبحانه فى هذه السورة، هم المشركون وأحوالهم، والأمر بإلغاء المعاهدة معهم، وإبعاد ذواتهم عن المسجد الحرام، وتقتيل من يحاول البقاء منهم ليحض على الشرك؛ حتى لا يجتمع فى جزيرة العرب دينان [1].

وعرفنا من قبل السبب، وأما الذين يتحدث عنهم الله فى هذه الآية فهم غيرهم... فرغم أن الحق سبحانه وتعالى أرسل لمشركى العرب محمداً ﷺ

(١) عن عائشة رضى الله عنها قالت : كان آخر ما عهد رسول الله ﷺ أن قال : «لا يترك بجزيرة العرب دينان» . أخرجه أحمد فى مسنده (٦/ ٢٧٥) قال الهيثمى فى المجمع (٥/ ٣٢٥) : «رواه أحمد والطبرانى فى الأوسط ورجال أحمد رجال الصحيح غير ابن اسحاق وقد صرح بالسماع».

وهو رسول من أنفسهم، فهم يعرفونه حق المعرفة، كما أن المعجزة التى جاء بها ﷺ من جنس فصاحتهم، فإذا كذبوه فهم مخطئون، ورغم هذا كذبوه ولم يؤمنوا به، أما خارج الجزيرة فالرسول ليس منهم، والقرآن لم ينزل بلغتهم، وكان عليهم أن يأخذوا من المنهج التطبيق المناسب. وهكذا نرى أن مصادمة الإيمان لم تكن من مشركى مكة فقط، بل كانت أيضاً من بعض يهود المدينة وبعض من نصارى نجران ، وإذا كان الحق سبحانه وتعالى قد حدد فى هذه السورة موقف الإيمان من المشركين به ، فقد أراد أيضاً أن يحدد موقف الإيمان من أهل الكتاب.

ونحن نعرف أن هناك فرقاً بين أهل الشرك وأهل الكتاب، فالمشركون لم يكونوا يؤمنون بالله إلهاً واحداً بل معه شركاء، ولكن أهل الكتاب يؤمنون بالإله ويؤمنون برسول وكتاب سماوى، وهم بذلك أقرب إلى الإيمان. ولذلك نجد القرآن الكريم يعرض لنا مثل هذه القضية كطبيعة فطرية، فنجد أن النبى ﷺ قد حزن هو وصحابته حين غُلبتْ الروم فى أدنى الأرض[1]. لماذا حزن الرسول ﷺ وهو يعلم أن الروم سيقفون أيضاً ضده ؟ لقد حزن ﷺ لأنهم يؤمنون أن للكون خالقاً واحداً وأن له رسلاً يوحى إليهم وأن له كتباً منزلة، لكن الأمر يختلف بالنسبة للمشركين ،فهم يكفرون بالله وهذا قمة الكفر. صحيح أن بعضاً من أهل الكتاب وقفوا مع المشركين فى موقف العداء

(١) عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : كان المسلمون يحبون أن تظهر الروم على فارس لأنهم أهل كتاب، وكان المشركون يحبون أن تظهر فارس على الروم لأنهم أهل أوثان ، فذكر ذلك المسلمون لأبى بكر رضى الله عنه فذكر ذلك أبو بكر للنبى ﷺ فقال له النبى ﷺ : أما إنهم سيهزمون فذكر أبو بكر لهم ذلك فقالوا : اجعل بيننا وبينك أجلاً فإن ظهروا كان لك كذا وكذا وإن ظهرنا كان لنا كذا وكذا فجعل بينهم أجل خمس سنين فلم يظهروا فذكر ذلك أبو بكر للنبى ﷺ فقال: ألا جعلته ـ أراه قال : دون العشرة ـ قال : فظهرت الروم بعد ذلك فذكر قوله تعالى ﴿ ألم غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون﴾ قال : فغلبت الروم ثم غلبَتْ بَعْدُ ﴿لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله﴾ قال سفيان : وسمعت أنهم ظهروا يوم بدر . أخرجه الترمذى فى سننه (٣١٩٣) وقال : حسن صحيح غريب . والحاكم فى مستدركه (٢/ ٤١٠) من حديث ابن عباس وقال : صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه وأقره الذهبى .

لرسول الله، لكن قلبه ﷺ معهم لأنهم أهل إيمان بالقمة. ويُسَرِّي الحق عن رسوله ﷺ فيقول:

﴿الٓمٓ ١ غُلِبَتِ الرُّومُ ٢ فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ٣﴾ [الروم]

وهنا يبرز سؤال يقول : متى سيغلبون؟ تأتي الإجابة من الحق تبارك وتعالى :

﴿فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾ [الروم: ٤]

والبضع بالنسبة للزمن هو فترة تتراوح من ثلاث لتسع سنوات، ولم يحدد الحق سبحانه وتعالى البضع هنا ؛ لأن المعارك لها أوليات ونهايات، لهذا جاء قول الحق تبارك وتعالى مراعياً لما تستغرقه هذه المراحل كلها، وجاء القول بأن نصر الروم على الفرس سوف يأتي بعد بضع سنين. وبالله قولوا لي: كيف يتحكم نبي أمي في جزيرة تسكنها أمة أمية، ولا علم لهذا الرسول بأخبار الأمم وكيف لهذا النبي أن يأتي بأخبار نصر أمة على أخرى؟ ويظل هذا الخبر في الكتاب الذي يحمل منهج رسالته قرآناً يُتْلَى ويتعبد به إلى قيام الساعة ؟ لقد قالها بثقة في حدوث ما جاء في القرآن في المستقبل القريب؛ لأنها جاءته عن ربه، وهو واثق أن قائل هذا الخبر قادر على إنفاذ ما يقول.

وإلا ، فماذا كان يحدث لو أن الرسول ﷺ قال ذلك ثم مر بضع سنين ولم يأت نصر الروم؟ وماذا يكون موقف الذين آمنوا به كرسول من عند الله ؟

إذن: هو ﷺ لم يكن ليجازف وينطقها إلا بثقة في أن القائل هو الحق سبحانه الذي شاء أن ينزل بالخبر في آية قرآنية تُتلى، وتُكتب، وتُحفظ، ويُصَلَّى بها في كل وقت إلى أن تقوم الساعة. وينزلها سبحانه على محمد ﷺ وقت أن كان ضعيفاً لا يعرف ميزان القوى، ولا يعلم هل ستستعد الروم لتنتصر أم لا ؟

ثم ألم يكن من الممكن أن يتصالح الروم والفرس؟ كل ذلك لم يكن فى حسبان محمد ﷺ؛ لأن الخبر جاء من الله وسبحانه القادر على إنفاذ ما يقول.

ألم يكن هناك إخبار عن أمور خالفت النواميس؟ نعم كانت هناك أمور خارجة عن النواميس وجاء بها الخبر من الله سبحانه وتعالى .. ألم يقل زكريا عليه السلام حين بُشّر بالولد:

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا (٨) قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا (٩)﴾ [مريم]

أى: ما دام الله سبحانه وتعالى قد قال فقد تأكد الحدوث.

وكان المؤمنون أقرب إلى الروم لأنهم أهل كتاب؛ ولأن لهم صلة بالسماء، ومن له صلة بالسماء يمتلئ بالحنين إلى أخبار السماء، ويتسمع أخبار المؤمنين فى القمة العقدية. ومن العجيب أن هذه الآية تصدق فى الروم وفارس، فينتصر الروم على الفرس، وتصدق فى محمد ﷺ وأصحابه، فينتصر رسول الله وأصحابه فى بدر. ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (٤) بِنَصْرِ اللَّهِ .. (٥)﴾ [الروم]

وفى الآية الكريمة التى نحن بصدد خواطرنا عنها يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ (٢٩)﴾ [التوبة]

ونلحظ أن الحق سبحانه وتعالى قد وصفهم هنا بأنهم لا يؤمنون بالله مع أنهم أهل إيمان. والمعنى أنهم لا يؤمنون بالله الإيمان الذى يعطى الله جلال

الصفات وكمالها؛ لأن بعضهم قال: إن الله له ابن اسمه عزير، وقال البعض الآخر: المسيح ابن الله، إذن فهم لم يؤمنوا بالله حق الإيمان تسبيحاً وتنزيهاً لذاته الكريمة عمَّا لا يليق بها، وكذلك يختلف إيمانهم باليوم الآخر عن الإيمان الحق به، إنه إيمان لايتفق مع مرادات الله تعالى؛ فهم يقولون مثلاً: إن النعيم في الآخرة ليس مادياً ولكنه نعيم روحي. ونقول: عندما يحدثنا الله عن نعيم الآخرة فلابد أن نعرف هذا النعيم حتى نفهم المعنى، ونتساءل: ما هو النعيم الروحي؟ هل النعيم الروحي هو خواطر في النفس فقط لا علاقة لها بالحقيقة؟ أيكون هذا هو نعيم الآخرة؟

لقد أوضح المولى سبحانه وتعالى بما لا يدع مجالاً للظن أو الشك أنه قد أعد جنة للمؤمنين وأعد ناراً للكافرين، وحكى لنا الحق سبحانه وتعالى عن هذه الحياة بما فيها من ثواب ومن عقاب؛ بما يقنعنا أن فيها نعيمًا مثل الذي نعرفه، فإذا كان هذا النعيم روحياً ونحن لا نعرف النعيم الروحي ولا نعلم شيئاً عنه، فكيف يغرينا الله عز وجل بشيء لا نعلمه؟ إذن: فإيمان هؤلاء الناس باليوم الآخر ليس إيماناً كما يريده الله.

فسبحانه حين يحدثنا عن الجنة إنما يحدثنا عن أشياء من جنس ما نعرف وليس من جنس ما لا نعرف. وصحيح أن الله سبحانه وتعالى قد بيَّن لنا بعض صور النعيم في الجنة، وقال: إنها مثل كذا وكذا. قال الحق جل جلاله:

﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَّعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾ [الرعد: ٣٥]

إذن: فالله عز وجل يعطي مثلاً فقط. ومعلوم أن اللفظ في اللغة لابد أن يوضع لمعنى معروف. ولذلك فعندما يحدثنا الله عن نعيم الجنة لابد أن يحدثنا بكلام نعرف معانيه. ورسول الله ﷺ قال عن الجنة:

«فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر»(١)

إذن : فلا توجد فى اللغة ألفاظ تعبر عن نعيم الجنة؛ لأن المعنى غير معروف لنا، ولكن الله أراد أن يحببنا فيها فأعطانا صورة نفهمها عن النعيم، فيقول عز وجل: ﴿ مَّثَلُ الْجَنَّةِ﴾ وهو يريدنا أن نعرف أن فيها نعيماً خالياً من كل المنغصات التى تكون فى المثل. فمثلاً الخمر فى الدنيا فيها خصلتان؛ الأولى أنها تغتال العقول (٢) والثانية : أنها لا تشرب بقصد اللذة، والذى يشرب الخمر لايشربها مثلما يشرب كوب عصير المانجو أو عصير الليمون الذى يستطعمه ويشربه على مهل، ولكنه يسكب الكأس فى فمه دفعة واحدة؛ لأن طعمها غير مستساغ وليقلل زمن مرور الخمر على الحس الذائق، ومعنى هذا أن طعمها غير مستطاب، ثم إنها تذهب بوعى الشارب لها فيفقد السيطرة على سلوكه، ويعتذر فى الصباح عما فعل أثناء احتسائه للخمر ويقول خجلاً: «لم أدر موقع رأسى من موقع قدمى» هذه خمر الدنيا، ولكن الخمر فى الجنة لا غَوْل فيها . . أى : لا تغتال العقول، حلوة المذاق، ولذلك يصفها الله سبحانه وتعالى بقوله:

﴿ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ ﴾ [محمد: ١٥]

أى: أنها مختلفة تماماً عن تلك الخمر التى حرمها الله فى الدنيا. وتتجلى الحكمة فى معنى الاستطعام فى قول رسول الله ﷺ:

«ثلاث من كُنَّ فيه وجد بهنَّ طعم الإيمان: من كان الله ورسوله أحب إليه

(١) عن سهل بن سعد الساعدي قال : «شهدت من رسول الله ﷺ مجلساً وصف فيه الجنة حتى انتهى ، ثم قال ﷺ فى آخر حديثه : فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، ثم قرأ هذه الآية : ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ . فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾» أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٨٢٥) وأحمد (٥/ ٣٣٤) من طريق ابن وهب عن أبى صخر به إلى سهل بن سعد ، وأخرجه الحاكم فى مستدركه (٢/ ٤١٣) من طريق عبد الله بن سويد عن أبى صخر به . وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وأقره الذهبى .

(٢) تغتال العقول : تسكرها وتذهب بها .

مما سواهما ، ومن أحب عبداً لا يحبه إلا لله، ومن يكره أن يعود فى الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يُلْقَى فى النار »[١] .

ومن رحمة الله تعالى بخلقه أنه لم يجعل الطعام وقوداً للطاقة فقط ، بل يغرى الناس على وقود الطاقة لاستبقاء الحياة بأن يستلذ الإنسان الطعام، ويطيل أمد اللذة ساعة تناوله، لا أن ينتظر النفع بعد أن يهضم الطعام. فكأن الإيمان لا يستمر إلا لمن يحب فى الله ويكره فى الله؛ فذلك يعطيه الطاقة التى تستبقى إيمانه؛ كما تستبقى طاقة الطعام حياة الإنسان. وشاء الله سبحانه وتعالى أن يعطينا فى تصوير الجنة المثل لما فى الجنة ، لا بتشخيص وتحديد لما فى الجنة فعلاً ، ويقول سبحانه وتعالى:

﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾
[السجدة]

وإذا كانت النفس لا تعلم شيئاً ، فهى لا تملك ألفاظاً تضع فيها ما لا تعلمه، فإذا خاطبها الله تعالى بواقع الجنة فهى لن تفهم، لذلك شاء الحق تبارك وتعالى أن يخاطبها بواقع المثل، فيقول عز وجل:

﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [البقرة]

إذن : فهو رزق يشبه الرزق الموجود فى الدنيا ولكن ليس هو [٢] ، أما أن

(١) متفق عليه . أخرجه البخارى (١٦) . ومسلم (٤٣) عن أنس بن مالك .
(٢) قال القرطبى فى تفسيره (١/ ٢٨٤) : ﴿من قَبْل﴾ يعنى فى الدنيا ، وفيه وجهان ، أحدهما : أنهم قالوا : هذا الذى وعدنا به فى الدنيا والثانى : هذا الذى رزقنا فى الدنيا ، لأن لونها يشبه لون ثمار الدنيا، فإذا أكلوا وجدوا طعمه غير ذلك . وقيل ﴿ من قَبْل﴾ يعنى فى الجنة لأنهم يرزقون ثم يرزقون، فإذا أتوا بطعام وثمار فى أول النهار فأكلوا منها، ثم أتوا منها فى آخر النهار، قالوا: هذا الذى رزقنا من قبل، يعنى أطعمنا فى أول النهار لأن لونه يشبه ذلك ، فإذا أكلوا منها وجدوا لها طعماً غير طعم الأول.
وقال ابن عباس : ﴿ وَأُتوا به مُتَشَابِهاً﴾ : هذا على وجه التعجب ، وليس فى الدنيا شىء مما فى الجنة سوى الأسماء ، فكأنهم تعجبوا لما رأوه من حسن الثمرة وعظم خلقها .

يقال : إن نعيم الجنة هو النعيم الروحى أو نعيم الخواطر أو ما نسميه آمال النفس، كأن يتخيل إنسان جائع أنه أكل كمية كبيرة من اللحم أو السمك؛ فتسعد روحه بذلك من غير واقع يحدث، فكل هذا غير حقيقى، ولكنهم يقولون هذا الكلام؛ لأنهم إذا ما تصوروا نعيم الجنة كالخواطر، فسوف يكون عذاب النار مقابلاً أيضاً لنعيم الجنة، أى سيكون عذاب الخواطر، وفى هذا تصور لعذاب سهل؛ لأنهم يخافون عذاب النار فيريدونه عذاباً روحياً.

ولكن الإحساس بالنعيم والعذاب لا بد أن يكون له واقع يشبهه فى الدنيا، وإلا ما وُجد فى أنفسنا ما يجعلنا نرغب فى نعيم الجنة ونخاف من عذاب النار. لذلكَ فإن نعيم الجنة حق، وعذاب النار حق. وشاء الله سبحانه أن يصفى النعيم من كل الشوائب، فقال عز وجل عن أنهار الجنة:

﴿ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ﴾ [محمد: ١٥]

أى: ليس فيه كل الشوائب الموجودة فى عسل الدنيا. وكذلك قال عن لبن الجنة:

﴿ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ ﴾ [محمد: ١٥]

وكلمة ﴿ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ ﴾ لها عند العرب أيام رسول الله ﷺ معنى؛ لأن العربى كان يحلب الجمال ويضع ألبانها فى الأوانى، وكان اللبن يتغير طعمه ويصير حامضاً، لكنه كان مضطراً أن يشربه؛ لذلك فحين يسمع ﴿وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ﴾ فهو يعطيه المثل من حياته، بعد أن ينقيه من كل الشوائب التى تفسد طعم اللبن فى الحياة الدنيا.

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ أى الإيمان الواجب بعظمة الله وتنزيهه. واليهود يؤمنون إيماناً إجمالياً بالله، ولكنهم يُجسِّمونه ويقولون: إنه جلس على صخرة ومد قدميه فى قصعة من الزمرد ثم استنكف الله أن يمد يده لبنى إسرائيل، وهذا تصوير لا يليق بكمال

الله ولا بذاته المقدسة، وهذا خطأ فى التصور. وكذلك كان خطؤهم فى تصور نعيم الجنة وعذاب النار، وبذلك لم يؤمنوا إيماناً حقاً باليوم الآخر، ولهذا جاء قول الحق: ﴿وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ وهم لم يقفوا فقط ضد الإسلام كمنهج، بل وقفوا أيضاً من أديانهم مثلَ هذا الموقف، ويقول المولى سبحانه وتعالى:

﴿ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ﴾

وهم كأهل كتاب حرفوا وبدلوا فى دينهم فأحلوا ما حرم الله. ولذلك يقول سبحانه: ﴿ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ ﴾

والحق ـ كما نعلم ـ هو الشىء الثابت الذى لا يتغير. وإذا نظرنا إلى كل رسول فى عصره؛ نجده قد جاء بالحق، وإذا جاء رسول من بعده فهو لاينسخ العقائد، ولكنه ينسخ فى الأحكام، وهكذا نعلم أن كل رسول جاء بالعقائد الثابتة وبالأحكام التى تناسب الزمان إلى أن بعث الله محمداً ﷺ، فكان النبى الخاتم إلى أن تقوم الساعة، ولابد أن يكون الحق الذى جاء به هو الحق الثابت الذى لا يتغير؛ لأنه خاتم الأنبياء والمرسلين فلا رسول بعده، إذن فقوله: ﴿وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ أى: أنهم لايؤمنون حتى بما جاء فى كُتبهم مَن بشارة بَه ﷺ، وهذا حكم خاص بهم؛ لأن المشكلة معهم أنهم لم يصدقوا بلاغ رسول الله ﷺ عن الله و أنه مرسل إليهم، وسَنّ رسول الله ﷺ فى معاملتهم ما شرعه الله تعالى، وذلك أن يعاملوا معاملة مختلفة عن المشركين، فمعاملة المشركين كانت براءة من العهد، وإبعاداً عن المسجد الحرام، وقتالاً إن وجدناهم، أو أن يسلموا. أما معاملة رسول الله ﷺ مع أهل الكتاب فكانت: إما أن يسلموا، وإما أن يعطوا الجزية مع استبقاء الحياة، ولذلك قال الحق تبارك وتعالى:

﴿ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾

أي: حتى يؤدوا ما فُرض عليهم دفعه من أموال مقابل حصولهم على الأمان والحماية، وفى هذا صون لدمائهم، ولذلك نجد أن المسلمين قد فتحوا بلاداً غير إسلامية وصاروا قادرين على رقابهم ولم يقتلوهم، بل أبقوا عليهم، وإبقاء الحياة نعمة من نعم الإسلام عليهم ، وهناك نعمة ثانية وهى أنه لم يفرض عليهم ديناً، وإنما حمى اختيارهم الدين الذى يرونه، وفى ذلك رد على من يقول: إن الإسلام انتشر بالسيف، ونقول: إن البلاد التى فتحت بالمسلمين أقرت أهل الأديان على أديانهم، وحمت فقط حرية الاختيار، بل وقف المسلمون بالسيف أمام القوم الذين يقفون أمام اختيار الناس، وتركوا الناس أحراراً. لكننا نجد المغالطات تملأ كتابات الغرب حول مسألة السيف. ونرد دائماً أن الإسلام لو انتشر بالسيف لما وجدنا فى البلاد التى فتحها أناساً باقين على دياناتهم، بل كان الإسلام يأخذ الجزية ممن بَقَوْا على دياناتهم من أهل الكتاب. وأخْذُ الجزية دليل على أنهم ظلوا على دينهم وظلوا أحياء، وهاتان نعمتان من نعم الإسلام، وكان يجب أن يؤدوا جزاء على ذلك، وكان الجزاء هو الجزية. وهى مادة «جزى» و«يجزى». فكأن الجزية فعلة من «جزى» «يجزى» ؛ لأن الإسلام قدم لهم عملاً طيباً بأن أبقى على حياتهم وأبقاهم على دينهم من غير إكراه ، فوجب أن يُعطوا جزاء على هذه النعمة التى أنعم الله تعالى بها عليهم بالإسلام.

وأيضاً، فإنهم سيعيشون فى مجتمع إيمانى؛ الولاية فيه للإسلام، ويتكفل المسلمون بحمايتهم وضمان سلامتهم فى أنفسهم وأهلهم وفى أموالهم وفى كل شىء، فإذا كان المسلم يدفع لبيت المال زكاة تقوم بمصالح الفقراء والمسلمين، فأهل الكتاب الموجودون فى المجتمع الإسلامى ينتفعون - أيضاً - بالخدمات التى يؤديها الإسلام لهم، ويجب عليهم أن يؤدوا شيئاً من مالهم نظير تلك الخدمات، والإسلام مثلاً لا يكلف أهل الكتاب أن يدخلوا جنداً فى حرب ضد أى عدو للمسلمين إلا إذا تطوعوا هم بذلك، إذن: فالجزية ليست فرض قهر، وإنما هى مقابل منفعة أداها الإسلام لهم؛ إبقاءً على

حياتهم وإبقاء على دينهم الذى اختاروه ، وقرر الحق أن يعطوا الجزية ﴿عَنْ يَد ﴾ واليد هى الجارحة التى تُؤدَّى بها الأعمال ، وأغلب الأعمال إنما تُزَاوَلُ باليَد ، ونجد القرآن الكريم يقول :

﴿ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلا يَشْكُرُونَ ﴾ [يس: ٣٥]

واللسان أيضاً آلة الكلام، والحق تبارك وتعالى يجازى على القول الطيب أو السيىء، ولكن الأصل فى العمل هو « اليد »، وتطلق اليد ويراد بها القدرة التى تعمل، أو يراد بها النعمة، مثل قولنا: فلان له يد على فلان، وفلان له أياد بيضاء علىَ الناس .

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ حَتَّى يُعْطوا الجزْيَةَ عَنْ يَد ﴾ .

فهل المقصود بـ ﴿ عَنْ يَد ﴾ أى من يُعْطُونَ الجزية، أم أيدى الآخرين الآخذين للجزية ؟

إن هذا القول: ﴿ عَنْ يد ﴾ مثلما يقال: فلان نفض يده من هذا الأمر، أى خرج عن الأمر ولم يعد يعاون عليه . إذن يكون معنى ﴿ عَنْ يَد ﴾ أى غير رد للنعمة . وعن يد منهم أى من المعطين للجزية، أو ﴿ عَنْ يَد ﴾ أى: يداً بيده فلا يجلس الواحد من أهل الكتاب فى الأمة الإسلامية المحكومة بالإسلام فى مكانه ويرسل رسولاً من عنده ليسلم الجزية، لا، بل عليه أن يدفعها ويحضرها بيده. [(١)] أو تقول: ﴿ عَنْ يَد ﴾ من معنى القدرة، فمن عنده قدرة، فنأخذ الجزية من القادر ولا نأخذها من العاجز [(٢)] .

إذن: يشترط فى اليد إن كانت منهم ثلاثة ملاحظ؛ الملحظ الأول: أن

(١) قوله تعالى ﴿عَنْ يَدَ﴾ قال ابن عباس : يدفعها بنفسه غير مستنيب فيها أحداً. وقيل ﴿عَنْ يَدَ﴾ عن إنعام منكم عليهم؛ لأنهم إذا أخذت منهم الجزية فقد أنعم عليهم بذلك. قال عكرمة : يدفعها وهو قائم والآخذ جالس، وقاله سعيد بن جبير، انظر تفسير القرطبى (٤ / ٤٢ .٣).

(٢) عن عروة بن الزبير قال: مرّ هشام بن حكيم بن حزام على أناس من الأنباط (فلاحو العجم) بالشام. قد أقيموا فى الشمس، فقال: ما شأنهم؟ قالوا: حُبسوا فى الجزية. فقال هشام: أشهد لسمعت رسول الله ﷺ يقول : «إن الله يعذب الذين يعذبون الناس فى الدنيا». أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٦١٣) وأحمد فى مسنده (٣/ ٤٠٤) وأبو داود فى سننه (٣٠٤٥).

يكونوا موالين لا نافضين لأيديهم منا ومن حكمنا، والملحظ الثانى: أن يأتى بها بنفسه لا أن يرسل بها رسولاً من عنده، وإن جاء بها لابد أن يأتى بها وهو ماش وأن يعطيها وهو واقف ومن يأخذ الجزية قاعد، وهذا هو معنى ﴿وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾. ولماذا يعطونها عن صَغار ؟ لأن الحق عز وجل أراد للإسلام أن يكون جهة العلو، وقد صنع فيهم الإسلام أكثر من جميل، فلم يقتلهم ولم يرغمهم على الدخول إلى الإسلام؛ لذلك فعليهم أن يتعاملوا مع المسلمين بلا كبرياء ولا غطرسة، وأن يخضعوا لأحكام الإسلام، وأن يكونوا موالين للمسلمين، لا نافضين الأيدى، وأن يؤدوا الجزية يداً بيد، وأما العاجز وغير القادر فيعفى من دفع الجزية [1].

﴿ حتَّى يُعطُوا الجزْيَةَ عَنْ يد وهُمْ صَاغرونَ ﴾ والصَّغَار من مادة الصاد والغين والراء، وتدل على معنيين؛ إن أردتها عن السن يقال « صَغُر »« يَصْغُرُ» مثل قولنا: فلان كبر يكبر. وإن أردتها فى الحجم والمقام نقول « صَغر » «يصغَر»، أى: صغر مقاماً أو حجماً، ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ [الكهف: ٥]

وهنا فى قوله: ﴿ حتَّى يُعْطُوا الجِزْيَةَ عَنْ يَد وهُمْ صَاغِرُون ﴾ تعنى أن يؤدوها عن انكسار لا عن علو، حتى إنَّ من يُعطى لا يظن أنه يعطى عن علو، ونقول له: لا، إن اليد الآخذة هنا هى اليد العليا.

ثم أراد الحق سبحانه وتعالى أن يعطينا حيثيات قتال الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، فقال بعد ذلك:

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣٠٤١) : «قال علماؤنا: أما عقوبتهم إذا امتنعوا من أدائها مع التمكن فجائز، فأما مع تبيّن عجزهم فلا تحل عقوبتهم، لأن من عجز عن الجزية سقطت عنه، ولا يكلف الأغنياء أداءها عن الفقراء. وروى أبو داود عن صفوان بن سليم عن عدة من أبناء أصحاب رسول الله ﷺ عن آبائهم أن رسول الله ﷺ قال: «من ظلم معاهداً أو انتقصه أو كلّفه فوق طاقته أو أخذ شيئاً منه بغير طيب نفس فأنا حجيجه يوم القيامة». الحديث أخرجه أبو داود فى سننه (٣٠٥٢).

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾

هذا الادعاء فيه مساس بجلال الله تعالى، فالإنسان يتخذ ولداً لعدة أسباب؛ إمَّا لأنه يريد أن يبقى ذكْره فى الدنيا بعد أن يرحل ، والله سبحانه دائم الوجود ؛ وإمَّا لكى يعينه ابنه عندما يكبر ويضعف، والله سبحانه وتعالى دائم القوة؛ وإما ليرث ماله وما يملك، والله تبارك وتعالى يرث الأرض ومن عليها. وإما ليكون عزوةً له، والله جل جلاله عزيز دائماً. وهكذا تنتفى كل الأسباب التى يمكن أن تؤدى إلى هذا الادعاء. ولا يعقل أن يرسل الله سبحانه رسولاً ليبين للناس منهج الحق فإذا به يقول للناس: إنَّه ابن الله . إذن فهم لم يؤمنوا الإيمان الكامل بالله.

ويسوق الحق تبارك وتعالى قول كل من اليهود والنصارى: ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُود عُزَيْرٌ ابنُ الله وقالت النَّصارَى المسيحُ ابنُ الله ﴾.

وهكذا نجد أنهم لم ينزهوا الله وأخلُّوا بالإيمان الحق. ولابد أن نعلم أن من قالوا: إن عُزَيْراً ابن الله ليسوا هم كل اليهود، بل جماعة منهم فقط هى التى جعلت عُزَيْراً ابناً لله لما رأى أفرادها على يديه نعمة أفاءها الله تعالى عليه، فقالوا: هذه نعمة عظيمة جداً لا يمكن أن يعطيها ربنا لشخص عادى، بل أعطاها لابنه. ذلك أن اليهود بعد سيدنا موسى عليه السلام قتلوا الأنبياء، وعاقبهم الله بأن رفع التوراة من صدور الحافظين لها، ولكن طفلاً لم يعجبه